

أ. م. د. صفوان سامي سعيد

كلية الآثار - جامعة الموصل

يقال أحياناً إنّ آشور كانت مملكة تأسست في المقام الأول من اجل الحرب، وليست هذه الحقيقة كلها، ولكن مما لا ريب فيه أنّ الحرب كانت أحد معالم الحياة الآشورية التي نعلم عنها الكثير، ولاسيما إبان العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م)^(١). إذ شغل غمارها الجزء الأعظم من سنوات حكم الملوك الآشوريين في سبيل تثبيت أركان المملكة الآشورية والحفاظ على الأمن والنظام في المنطقة القائم على القوة والنفوذ الآشوري. وفي الوقت ذاته كانت لتلك الحروب إفرازاتها وانعكاساتها على واقع المجتمع الآشوري الحديث، فسياسة التوسع التي انتهجها أولئك الملوك في حملاتهم العسكرية تحت أي دافع أو مسوغ ديني كان أو سياسي وما رافق ذلك كله من أعمال الترحيل الجماعي لسكان البلدان المقهورة منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وإسكانهم كمجاميع حافظت على وحدتها العرقية ضمن مدن المملكة الرئيسية مثل نينوى وكلخ (النمرود)^(٢) قد أثر بشكل أو بآخر على سلوك سكان المملكة وتركيبهم ودرجة انتمائهم. فقد أخضعت تلك الحملات تحت لوائها طوعاً أو كرهاً بلداناً وقوميات ذات خليط من ثقافات ولغات متنوعة تباينت في الولاء والانتماء لسلطة الملك الآشوري المطلقة وأوامر حكومته المركزية بين الطاعة والعصيان.

فكثيراً ما استوقفنا عبارات نصية واردة في الرسائل الإدارية والمتضمنة أوامر ملكية باعتقال أشخاص وحبسهم أو البحث عن هاربين وإلقاء القبض عليهم عند أدلة أو حقائق تُعدّ في رأينا على قدر كبير من الأهمية في فهم وإدراك جوانب من سلوك الرعايا ونظرتهم تجاه المملكة وسياسة ملوكها. من ذلك على سبيل المثال ما جاء في رسالة بعثها نابو-بيل-كئن Nabu-bel-ka'in حاكم مقاطعة لبْد Lubda (داقوق) إلى الملك الآشوري رداً على رسالة الملك إليه بشأن اعتقال وحبس ابن كَرَكُ Karakku حاكم مدينة أريكُ Uriakka (مدياMedia) وتعيين رمّتي Rameti ابن إرتكُنُ Irtukkanu سيد مدينة أريكُ بدلاً منه قائلاً ما يأتي:

"بخصوص ما كتب إلي سيدي الملك "اعتقل وحبس ابن كَرَكُ العائد لمدينة أريكُ وعيّن رمّتي بدلاً منه" اعتقلت وحبست ابن كَرَكُ كما كتب سيدي الملك وأرسلنا رمّتي عوضاً عنه"^(٣). أو كما جاء في رسالة أخرى بعث بها شخص لا يعرف اسمه بسبب كسر في مقدمتها يُعْلم الملك بالآتي "بخصوص ما كتب إلي سيدي الملك "أين هو؟" أخبروني " بعدما رَحَلَ ×× هرب وذهب إلى بلاد شُبْري Šubria ربما يقول سيدي الملك هل عاد ورجع من شُبْري؟ أنا سألت وتحققت فأخبروني أنه منذ أن هرب وذهب إلى شُبْري لم يَعدْ يرجع إلى البلاد"^(٤). وفي سياق آخر مماثل جاءنا في رسالة يخبر صاحبها الملك الآشوري بما يأتي:

ša LUGAL be-lí iš-pur-an-ni ma-a šu-pur lí-is-bu-tú lu-bi-lu-ni-šú: a-sa-par ina KUR bar-hal-za ub-ta-iu-u-šu la-a-šú la-a e-mu-ru-šu a-na URU mu-ti-an-ni ina ŠÀ URU-šu it-tal-ku la-a-áš-šú ŠEŠ-šu šu-u-tu e-du-ma-nu ina ŠÀ-bi kam-mu-mu-su i-sab-tu na-su-ni-šú a-sa-al-šu nu-uk ŠEŠ-ka a-le-e ma-a la il-li-kam-ma ina UGU-hi-a an-nu-rig ina UGU LUGAL EN-a ú-se-bi-la-šu^(٥).

"(بخصوص فلان) الذي كتب إلي سيدي الملك بشأنه أرسل (أمراً) باعتقاله وإرساله إليّ، أرسلت (هذا الأمر) وقاموا بالبحث (عنه) في مقاطعة بَرَحَلَزَ Barhalza، لكن لم يجده. ذهبوا إلى مدينة مُتِيَم Mutianni لكن ثانياً لم يكن موجوداً فقط أخت واحد له يعيش هناك، ألقوا القبض عليه وجلبوه إليّ سألته أين أخوك؟ (فأجاب) إني متأكد أنه لم يأت إليّ، الآن أرسله إلي سيدي الملك". فعلى الرغم من عدم معرفتنا في الوقت الحاضر ما هي الأسباب التي كانت تقف وراء البحث عن ذلك الشخص وإلقاء القبض عليه، لكن مما هو مؤكد لدينا أنّ مثل هذا الإجراء المتبع من

الملك شخصياً في هذه الرسالة وغيرها ينم في جوهره عن حرص الملك الآشوري على فرض الأمن والنظام والقضاء على أي عمل أو سلوك يقتضيه شخص ما قد ينعكس سلباً على واقع البلاد وأمن المملكة مما قد يخرط حسب نظرته ضمن مفهوم التمرد بأشكاله أو التخاذل والعصيان في تنفيذ أعمال المملكة وواجباتها ذات الطابع المدني أو العسكري.

التمرد

كلمة كثيراً ما ترددت في حوليات الملوك الآشوريين ومعاهداتهم بالصيغ الآتية nabalkattu, nabakutu, sehû, sihu, bārānu, bārtu وكانت في أكثر من موضع مسوغاً رئيساً لهم لشن الحملات العسكرية وإنزال أقصى العقوبات بحق مخططيها ومدبريها، فهي على الرغم من أنها تعدّ إحدى أبرز المؤشرات السياسية الخطيرة في زعزعة أمن المملكة وتجزئتها وإضعافها سياسياً واقتصادياً، إلا أنها تمثل على اختلاف أشكالها وأهدافها تخلي أصحابها عن بنود المعاهدات والأحلاف التي عقدها مع الملوك الآشوريين وحنثهم باليمين الخاص بالتحالف الذي كان يعدّ من وجهة نظر الآشوريين جريمة ليست ضد الملك الآشوري فحسب بل ضد الآلهة التي أقسموا بها أيضاً. كما فعل ذلك الملك آشور-بان-ابل Aššur-bāni-apli (اشور-بانيبال) (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) بحق عدد من ملوك وشعوب مدن في مصر بسبب انتهاكهم القسم الذي أقسموه بالآلهة العظام. إذ قال بحقهم في أحد نصوصه ما يأتي "عندما كانت محطتي (في مصر) حسب مشيئتهم خططوا لعمل شرير، سمعوا موظفي بذلك الأمر وألقوا القبض على رسلهم ومعهم رسائلهم واروهم مؤامراتهم بأمر عينهم ألقوا القبض على أولئك الملوك وربطوا أيديهم وأرجلهم بأغلال من حديد، لعنة آشور ملك الآلهة حلت عليهم بسبب خنثهم القسم الذي أقسموه بالآلهة العظام. بينت بأيديهم كل الأعمال الجيدة التي عملتها له بعطف، وسكان مدينة سيس Sais وبنيت Pintiti وسنُّ Si'nu وبقية المدن وبقدر ما شاركوا في المؤامرة الشريرة ضربتهم بالسيف كبيرهم وصغيرهم، ولم يهرب رجل منهم"^(٦).

ويتضح من استقراءنا لنصوص العصر الآشوري الحديث أن هناك أشكالاً وأهدافاً واضحة لمفهوم التمرد أمكننا الاستدلال عليها بما ورد في حوليات الملوك الآشوريين ومعاهداتهم، فضلاً عن بعض الرسائل الإدارية التي أتت من المملكة الآشورية إبان هذا العصر، وهي على النحو الآتي:-

١- التمرد الذي مقصده الإطاحة بشخص الملك أو ولي العهد أو أحد حكامه.

ويُعدّ ذلك من أخطر ما كان يخشاه الملوك الآشوريون أثناء حياتهم وهم داخل البلاط الملكي أو خارجه. فعلى الرغم مما أتصف به ملوك العصر الآشوري الحديث من قوة وبأس جعلهم قادة لأعظم إمبراطورية عرفها العالم القديم آنذاك، فإن الذي يمكن استنتاجه من دراسة بعض النصوص التي أتت من بلاد آشور إبان هذا العصر أن هناك مؤشرات واضحة لمؤامرات ودسائس كانت تحاك غالباً من داخل القصر الملكي ضد الملك الآشوري من بعض الأمراء ورجال البلاط بدرجة تردد ذكرها أكثر من مرة نظراً لخطورتها في نصوص الفأل الآشورية التي كانت مقتصرة على أمور مؤثرة في الملك والمملكة الآشورية على حد سواء، إذ نقرأ في إحدى هذه النصوص ما يأتي:

1 MUL.UDU.IDIM ana MUL.LUGAL TE DUMU LUGAL šá i-na ZAG-MU áš-bu HI.GAR ana AD-šú DÛ-uš-ma GIŠ.GU.ZA NU DIB-bat ^(٧)

" إذا أتى نجم بالقرب من نجم الملك، فإن ابن الملك الذي يعيش في حاشيته سوف يتمرد ضد أبيه ولكن سوف لن يستولي على العرش". لذلك فقد سعى الملوك الآشوريون في بادئ الأمر إلى الحد من تلك الأعمال التمردية وذلك بإبرام المعاهدات السياسية مع رعايا المملكة ونبلائها والزامهم بالقسم الخاص بالآلهة، من ذلك على سبيل المثال المعاهدة التي أبرمها آشور-أخ-إدّن Aššur-ahu-iddin (اسرحدون) (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) مع خُمبَرَش Humbareš حاكم مدينة نَحْشِمَرْت Nahšimarti الميدي وأولاده وأحفاده وكل رعايا المملكة الآشورية بخصوص تعيين ابنه آشور-بان-ابل ولياً للعهد على بلاد آشور، إذ نقرأ في إحدى بنودها الفقرة الآتية:

šum-ma me-me-ni ina É.GAL bar-tu lu ina kal UD-me lu-u ina kal MI lu-u ina KASKAL lu
ina qab-si KUR a-na ^maš-šur-PAB-AŠ MAN KUR aš-šur e-ta-pa-áš at-tu-nu la taš-me-a-šú ^(٨)

"إذا قام أيّ أحد في القصر بتمرد مسلح سواء بالنهار أو بالليل أو في حملة أو في داخل البلاد ضد آشور-أخ-
إدّن، ملك بلاد آشور انتم لم تسمعوه.

غير أن تلك الجهود الدبلوماسية لم تكن كافية لوحدها على ما يبدو للحدّ وبشكل كامل من تلك الأعمال التي كادت
تقضي على حياة بعض الملوك الآشوريين بدليل ما جاء على لسان الملك آشور-بان-أبل عندما قال في إحدى
حولياته الملكية: "لماذا كل ذلك المرض وألم القلب والضيق والهلاك الذي يكبلني؟، العداوة في البلاد والنزاع في
البيت لا يغادر جانبي الشغب وكلمات الشر تحاك ضدي باستمرار. ضيق القلب وألم الجسد قد غير شكلي لذا قضيتُ
أيامي أندب وأنوح إني متضايق في يوم إله المدينة وفي أيام العيد الديني. فالموت يجعل مني نهاية يحطّ من قدري
فاجلس بكرب ومحنة واندب بالنهار والليل..." ^(٩).

ويمكن في الوقت نفسه أن نلتمس من تحليل الأبعاد السياسية لبنود المعاهدات الآشورية أن هناك نوعين من هذا
التمرد حدد معالمهما الملوك الآشوريون بالشكل الآتي:
أ - التمرد السياسي الإعلامي:

ومقصده إثارة الشعور العام والإساءة لشخص الملك الآشوري، ويتجلى لنا ذلك في أحد بنود معاهدة الملك آشور-
بان-أبل مع الحلفاء البابليين إذ نقرأ ما يأتي "سوف لن نصغي لأيّ شخص مقيت يعمل على إثارة الشعور العام أو
التأمر، الذي يتكلم بكلمات شرّ ضدّ سيدنا آشور-بان-أبل، ملك بلاد آشور أو موظف سيدنا آشور-بان-أبل، ملك
بلاد آشور، لكن سوف يُرمَى به في الأغلال (ويرسله) إلى سيدنا آشور-بان-أبل، ملك بلاد آشور" ^(١٠)، وربما كان
سبب إبرام هذه المعاهدة التمرد الذي قاده شمش-شُم-أكن šamaš-šumu-ukin الأخ الأكبر لآشور-بان-أبل، عندما
أصبح الأخير ملكاً على بلاد بابل، بدليل ما ورد في إحدى فقرات هذه المعاهدة إذ نقرأ "جرائمنا (الحلفاء البابليون)
التي ارتكبناها بسبب شمش-شُم-أكن ضدّ سيدنا آشور-بان-أبل، ملك بلاد آشور قد غفرها سيدنا آشور-بان-
أبل، ملك بلاد آشور" ^(١١)، إذ قام شمش-شُم-أكن بتحريض القبائل البابلية الصديقة لبلاد آشور ضد آشور-بان-أبل
وذلك بخداعهم بقول الأكاذيب وإرسالهم إلى نينوى على وفق خطة تتوى على الخداع على حدّ قول آشور-بان-أبل في
إحدى حولياته ^(١٢). وقد سعى آشور-بان-أبل في بادئ الأمر إلى التحرك بسرعة لحل المشكلة البابلية بطرائق سلمية
عندما وجه رسالة إلى سكان بلاد بابل يناشدهم ويحذرهم فيها من مغبة الاستمرار في مساعدة شمش-شُم-أكن، نقرأ
فيها "أما تلك الكلمات الجوفاء التي أسمعكم إياها ذلك الأخ الخائن فقد بلغت كلها مسامعي وهي ليست إلا ريحاً
ذاهبة فلا تصدقوه... لا تصفوا حتى ولا لحظة واحدة لأكاذيبه، ولا تلتخطوا اسمكم المجيد الناصع أمامي وأمام كل
العالم بالغبار ولا تجعلوا أنفسكم آثمين بحق الآلهة المقدسة" ^(١٣).

أ - التمرد المسلح

هو العمل المسلح بعينه كما يفهم ذلك من أحد بنود معاهدة الملك آشور-أخ-إدّن المذكورة آنفاً، إذ نقرأ فيه ما يأتي:
"إذا تكلم أي أحد إليك بتمرد si-hu أو عصيان مسلح bar-tu (مقصده) القتل أو الاغتيال والتخلص من آشور-
بان-أبل ولي العهد المعظم بن آشور-أخ-إدّن، ملك بلاد آشور سيدك الذي بخصوصه عقدت (هذه) المعاهدة، أو
إذا سمعت أنت بها من فم أي أحد سوف تلقي القبض على مرتكبي ذلك العصيان المسلح وتجلبهم أمام آشور-
بان-أبل ولي العهد المعظم... ومع ذلك إن لم تكن قادراً على إلقاء القبض عليهم وقتلهم سوف تُعلم آشور-بان-أبل
ولي العهد المعظم المعين وتساعد في القبض عليهم وإعدام مرتكبي التمرد" ^(١٤).

ولعل غاية آشور-أخ-إدّن السياسية في إدراج هذا البند في المعاهدة والتأكيد على ضرورة بل وجوب إنزال عقوبة
الإعدام موتاً ليس بحق مرتكبي التمرد فحسب بل بحق كلّ من تسول له نفسه حتى التفكير في القيام بمثل هذا العمل

حرصاً منه للتجنب من المصير الذي سبق أن لاقاه والده الملك سين-أخي-ريبب sîn-ahhe-riba (سنحاريب) (٧٠٤-٦٨١ ق.م) وأسلافه من قبله. فقد قتل سين-أخي-ريبب على يد أبنائه آرذ-مليش Arad-mulišši وآشور-مُنين Aššur-munin في تمرد أعلنه ضده استمر لمدة ثلاثة أشهر وقضى على هذا التمرد آشور-أخ-إدّن الذي غادر بابل حال سماعه نبأ مقتل أبيه واتجه إلى نينوى واعتلى العرش بعد أن هرب القتلى إلى شمالي بلاد آشور^(١٥). ويخبرنا أحد نصوص التاريخ المعاصري الآشوري والبابلي عن هذا الحدث بما يأتي:

iti tebetu UD ×× kám ^dsîn-ahhē-eriba šār KUR aš-šur mār—šú ina si-hi iddūk-šú [×] MU.MEŠ ^dsîn-ahhē-eriba šarru-ut KUR aš-šur ipuš ultu UD ×× kám šá iti tebēti a-di UD II šá iti addari si-hi ina KUR aš-šur sa-dir iti addaru UD [×(?)] XVIII-kám aššur-aha-iddina mār-šú ina KUR aš-šur ina kússê ittašab^(١٦).

" في اليوم العشرين من شهر طيبب (العاشر) قتل سين-أخي-ريبب ملك بلاد آشور من قبل ابنه بتمرد بعد أن حكم آشور أربعة وعشرين عاماً واستمر التمرد في بلاد آشور من اليوم العشرين من شهر طيبب إلى اليوم الثاني من شهر آذار وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر آذار غادر آشور-أخ-إدّن بابل متوجهاً إلى بلاد آشور واعتلى عرشها". كما سبقه في ذلك الملك آشور-نيراري الخامس (٧٥٣-٧٤٦ ق.م) الذي قتل على إثر تمرد حصل في كلح عام ٧٤٦ ق.م^(١٧). وقبل ذلك كله المصير الذي لاقاه الملك توكلتي-نورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) على أثر تمرد حصل ضده قام به أحد أبنائه المدعو آشور-ناصر-أبل في مدينته الملكية كار-توكلتي-نورتا (تلول العقر حالياً على نهر دجلة مقابل مدينة آشور)، إذ أقصاه عن العرش وحبسه في إحدى غرف المدينة المذكورة وقتله بالسيف، ويستدل على ذلك بما جاء في أحد نصوص التاريخ المعاصري إذ نقرأ العبارة الآتية:

^mTukul-ti-^dNinurta šá ana Bābili ^{ki} ana lemuttu (hul) ^{tu} qātē II ú-bil-lu ^{ma}aššur-na-sir-apli mār-šú u LÚ rabūti-MEŠ šá KUR aš-šur-KI ibbalkitū-šu-ma ina kussê-šú id-ku-šu-ma ina URU kar-tukul-ti-^dninurta ina biti i-si-ru-šu-ma ina GIŠ kakki idūkū-šú^(١٨).

"توكلتي-نورتا (الأول) الذي نفذ مخططات إجرامية في بابل، تمرد ضده ابنه آشور-ناصر-أبل ونبلاء عائدون لبلاد آشور، أبعده عن العرش وأسروه في غرفة في مدينة كار-توكلتي-نورتا وقتلوه بالسيف" إلى جانب ذلك لم تقتصر أعمال التمرد على الملوك فحسب بل شملت أيضاً بعض المسؤولين أو الحكام في المملكة، كما ذكرنا آنفاً، بدليل ما جاء في رسالة بعث بها حاكم مقاطعة شبرش šabirešu (بسون) المدعو آشور-دور-بني Aššur-dūr-paniya إلى الملك الآشوري يخبره في مستهلها بالآتي:

LÚ.GAL-50-ia šú-u ša LÚ.gur-ra-a-a URU.mu-dur-na-a-a a-na LÚ.ha-za-ni ša URU.mu-dur-na i-du-ka TA* mar KASKAL il-li-kan-a-ni la il-li-ka dul₆-lu TA* ŠEŠ.MEŠ-šúla e-pu-uš TA* pa-an ip-ta-làh 15 LÚ.gur-ra-a-a ina qa-a-ti-šú i-sab-bat a-na KUR.URI-a i-la-ka^(١٩).

"قائد الخمسين العائد إليّ والعائد (لفرق) الـ كزّين Gurraan من مدينة مئرن Meturna قتل محافظ مدينة مئرن. من لحظة قدوم الحملة لم يذهب مع إخوته للقيام بالعمل لكن خاف من صنيعته اخذ معه (حكم في يديه) ١٥ من الـ كزّين وذهب إلى بلاد اورارت".

٢- التمرد على السيطرة والنفوذ الآشوري

ويقصد بهذا النوع من التمرد وفق المنظور الملكي الآشوري الأعمال المسلحة التي تقوم بها مجموعة من الأشخاص غايتها السياسية من ذلك تقويض السيطرة الآشورية على منطقة ما وضمها تحت سيطرتها كما يفهم ذلك من خلال ما

ورد في إحدى حوليات الملك آشور-ناصر-أبيل Aššur-nasir-apli الثاني (آشور ناصر بال) (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) عندما قال في أحد نصوصه الملكية ما يأتي:

" في نفس اللمو (لمو آشور-ناصر-أبيل الثاني) عندما كنت في نينوى وردني تقرير يقول إن رجالاً عائدين لبلاد آشور وحاكم مدينتهم خلّاي Hulāiya الذي أسكنهم شلمان-أشريد (شلمنصر) ملك بلاد آشور الأمير الذي سبقني في مدينة خلزُح Halziluhu - تمردوا واتوا واستولوا على مدينة دمدمُس Damdammusa مدينتي الملكية. بأمر الإله آشور والآلهة شمش وادد الآلهة التي ساعدتني أمرت عرباتي وفرقي... وتقدمت نحو مدينة كُنْبُ kinabu المدينة المحصنة العائدة لـ خلّاي مع حشد قوتي ورهبة معركتي طوقت واستوليت على المدينة وذبحت بالسيف ٨٠٠ من قواته المحاربة... " (٢٠).

التخاذل والعصيان

هو نوع من السلوك ينطوي على مفهوم التهرب والتذمر وربما الخوف من الأوامر والتعليمات، شاع بين شريحة واسعة من رعايا المملكة الآشورية الحديثة ربما لأسباب سنتطرق إليها فيما بعد. ويتضح من خلال استقراءنا للعديد من الرسائل الإدارية المرسلة إلى الملوك الآشوريين أن هناك ملامح واضحة لمفهوم التخاذل والعصيان أمكننا التعرف عليها والوقوف عند البعض منها، متمثلة بالمحاور الآتية.

١- التهرب من تنفيذ أعمال المملكة ذات الطابع المدني:

وردت لنا إشارات في الرسائل الإدارية عن ملامح الاستياء الواضح لدى الجهات الرسمية في المملكة من سلوك بعض الرعايا وتهربهم من تنفيذ الأوامر الملكية وأداء الخدمات، ويتجلى لنا ذلك بما جاء في رسالة بعثها بيل-لقب Bēl-liqbi حاكم مقاطعة صُبت Supat (حمص، صوبا) إلى الملك الآشوري يخبره في إحدى مضامينها ما يأتي:

"تجاريني الذين عملوا في مدينة صُبت هربوا من عندي، سيدي الملك كتب بأنهم يجب أن يعودوا إلى دور-شروكين لذلك فإني ألقيت القبض عليهم وجلبتهم ولكن أحدهم أصابه المرض ومات بينما هرب الآخرون مرة أخرى" (٢١). أو كما ورد في رسالة يشتكي فيها منادي القصر كَبُّ-أَن-آشور Gabbu-ana-Aššur إلى الملك الآشوري عصيان سكان البلاد بعدم تنفيذ أوامره بشأن العمل معه قائلاً ما يأتي:

NA₄.I.DIB.MEŠ NA₄.^dALAD.^dLAMA ina UGU-hi-ia ka-ár-ri UN.MEŠ KUR mi-mi-e-ni la im-ma-gúr a-na dul₆-li-ia la ú-su-u-ni ma-a ERIM.MEŠ-ka a-ni-ni-e la i-šam-u-ni a-na-ku-u [××] an-nu-te mi-i-nu ša i-ba-šu-u-ni ša la-šu-u-ni ki-ì a-he-iš la-šú la i-šam-u-ni (22).

"أحجار العتبات والثيران المجنحة فرضت عليّ، ولكن سكان البلاد رفضوا كلياً الذهاب إلى عملي قائلين "هل نحن رجالك؟" لم يصغوا إليّ هؤلاء (الناس)، جماعياً وبطريقة حازمة لم يطيعوني بأية طريقة ممكنة". وورد في رسالة أخرى مغايرة أرسلها حاكم مقاطعة شِدِكَنَّ šadikanni (تل عريان، تل عجاجة) المدعو سَمْنُح-بيل-أصُر Sammuha-belu-usur إلى الملك الآشوري يخبره بما يأتي:

dul-lu LUGAL ina UGU-hi-a KALAG-an LÚ.ERIM.MEŠ-a ku-si har-pi [×××] ša i-pa-tar-u-ni TA IGI dul-li MAN ina ŠÀ É.KALAG.MEŠ-ma e-tar-bu LUGAL be-lí LÚ*.qur-bu-ti lip-qi-du lu-še-sa-šú-nu dul-lu ša LUGAL le-pu-šu (23).

"أعمال الملك أصبحت عباً عليّ. حررت رجالي في الشتاء الباكر، ولكن هؤلاء الذين حرروا دخلوا الحصون من أجل التهرب من أعمال الملك، عسى سيدي الملك أن يدعو الحارس الشخصي يأتي كأمورية لجلبهم خارجاً وجعلهم يمارسون أعمال الملك".

٢- التهرب من أعمال المملكة ذات الطابع العسكري:

ويمثل هذا السلوك النمط الثاني من أنماط العصيان التي عانت منها المملكة الآشورية إبان العصر الآشوري الحديث. فالتهرب من الخدمة العسكرية والتخاذل وعدم الانضباط في تنفيذ الأوامر ذات الطابع العسكري كانت من أبرز المشاكل الحقيقية التي واجهت الجهات الرسمية في المملكة ومسؤوليتها المباشرة في ذلك أمام الملك. من ذلك على سبيل المثال ما جاء في رسالة بعثها شخص يدعى شمش-تكلاك Šamaš-taklak إلى الملك الآشوري رداً على رسالة الملك إليه بخصوص عدد من الأمور العسكرية من ضمنها تدوين عدد الخيول العائدة للهاربين من الخدمة العسكرية نقرأ فيها:

ša LUGAL EN iš-pur-an-ni ma-a ni-bu ša ANŠE.KUR.RA.MEŠ-ka ša [×××] ša ma-aq-tu-ti šu-tar še-bi-la ANŠE.KUR.RA ma-aq-tu-te ša MU.IM.MA a-na LUGAL EN-ia ur-ta-am-mi ša MU.AN.NA an-ni-ti⁽²⁴⁾.

"بخصوص ما كتب إلي سيدي الملك "دون عدد خيولك ×× والعائدة للهاربين من الخدمة العسكرية وأرسلها إلي". أعطيت سيدي الملك سابقاً خيول الهاربين من الخدمة العسكرية في السنة الماضية". وكان لذكر الهاربين من الخدمة العسكرية في رسالة بعثها شخصان هما نابو-رئيم-نیش Nabu-ra'im-nišu وسلّمَن Salamanu إلى الملك الآشوري يخبرانه بالآتي:

"بخصوص الهاربين من الخدمة العسكرية الذين أرسلهم إلي حاكم مدينة دير Der والذين بخصوصهم كتب إلي سيدي الملك "استجوبهم" استجوبناهم. دُر-سلا Bur-sila، الرجل الثالث العائد لابن الملك، كُدُرُ kudurru، العبد العائد لـ منييت Mannaipite، كذلك الرجل الثالث العائد لابن الملك، المجموع عيلاميان رَم-إل Rama-il رجل من أرباخا سائق العربة العسكرية العائدة للحاكم، أَد قَرِتَش Addiqritušu والعبيد العائدون إلى إيرُ Iairu الـ كَمْبَلِين Gambulean⁽²⁵⁾. وفي سياق مغاير جاءنا في رسالة يخاطب صاحبها الملك الآشوري قائلاً ما يأتي:

KUR pi-lis-ta-a-a ša LUGAL be-lí ki-is-ru ik-sur-u-ni i-di-na-an-ni la i-ma-gúr ina IGI-ia la i-za-zu⁽²⁶⁾.

"الفلسطينيون الذي أخطبهم سيدي الملك في كتيبة وأعطاني إياهم رفضوا البقاء معي" ونجد في الوقت ذاته الشكوى من سلوك الصيديين وقادتهم في رسالة بعثها شخص يدعى نابو-رب-أخي Nabu-riba-ahhe إلى الملك الآشوري يخاطبه بالقول.

URU.si-du-na-a-a LÚ*.SAG.DU.MEŠ-te la-a TA* DUNU LUGAL EN-ia ina URU.kàl-ha il-li-ku la-a ina ma-sar-te ša URU.ni-nu-a i-za-zu qab-si URU i-du-lu ia-mu-tu ina É ub-re-e-šú⁽²⁷⁾.

"الصيديون وقادتهم لم يذهبوا إلى كلخ مع سيدي ابن الملك، ولم يخدموا في الحامية العسكرية التابعة لنينوى، يتسكعون في مركز المدينة كل في مكان إقامته".

٣- التهرب من دفع الضرائب:

منذ أقدم المدد التاريخية المعروفة مثلت الضرائب التي كان يقدمها رعايا الدولة وإتباعها أهمية اقتصادية كبيرة للمملكة الآشورية الحديثة، إذ تُعدّ إحدى المصادر المهمة التي تؤمن مستلزمات المملكة المتنامية إبان هذا العصر، فضلاً عن أهميتها السياسية بوصفها كانت تمثل وجهة نظر دافعيها إذ إنها تعبر عن مفهوم الطاعة والولاء لسلطة الملك الآشوري وأوامر حكومته المركزية لذلك فإن التناقل والامتناع عن دفعها كان يُعدّ من وجهة نظر الملوك الآشوريين آنذاك سلوكاً عدائياً وعملاً يخلُ بنظام الأمن الاقتصادي في المملكة. ولعل هذا ما يفسر لنا الإجراء الذي اتخذهُ فُرد-آشور-لأمور Quardi-Aššur-lamur الموظف الآشوري المسؤول عن الموائئ اللبنانية في كل من صور وصيدا عندما قام بإرسال قوات الـ اتو Itu'u⁽²⁸⁾ إلى الصيديين وإخافتهم على اثر قيامهم باختطاف موظف الضرائب

المسؤول الذي عينه في صيدا مما اضطرهم على اثر ذلك إلى إطلاق سراحه وإعادته إلى موضعه، كما نصت على ذلك رسالته التي بعث بها إلى الملك توكلتي-أبل-أشَرَّ Tukulti-apil-Ešarra (تَكَلَّا تَبْلِيْزِر الثالث) (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) إذ جاء فيها العبارة الآتية "عينت جابي الضرائب على أولئك الذين ينزلون إلى الأرصفة في صيدا إلا أن الصيدين اختطفوه وعليه أرسلت الد اتو إلى جبل لبنان وجعلوهم يرتعبون، بعد ذلك أرسلوا إليّ وجلبوا (ارجعوا) جابي الضرائب إلى صيدا"^(٢٩). لذلك كانت المراسلات الإدارية إلى الملوك الآشوريين تخبرهم على الدوام بخصوص الهاريين من دفع الضرائب المترتبة عليهم والإجراءات المتخذة أو الواجبة اتخاذها ضدهم. من ذلك على سبيل المثال ما جاء في رسالة تكلاك-أن-بيل Taklak-ana-Bēl حاكم مقاطعة نصيبَ Nasibina (نصيبين) إلى الملك الآشوري رداً على رسالة الملك بشأن رئيس جماعة الرعاة المدعو إل-بي-أصُر Ilu-piya-usur نقرأ فيها ما يأتي:

"بخصوص ما كتب إلي سيدي الملك " قال الراعي إل-بي-أصُر: في السنة الماضية انتزعت ٣ ورنات من الفضة ودفعتنا كاملاً، الآن اخبرني تكلاك-أن-بيل بجلب ورنتين أخريين". لماذا أخبره (بوجود القيام بمثل هذا العمل)؟ إنه رئيس جماعة الرعاة، فرضت عليه (جباية) ٣٠٠ رزمة من التبن والقصب للطابوق، لكنه لم يعط أياً منها (وبدلاً من ذلك) سرق الأغنام التي بذمته وهرب وذهب والتجأ في المعبد. أرسلت (الرجال) لجلبه إليّ وإخباره أي سوف أتجاوز عن أغنامك (حلما) تؤدي (عملك)"^(٣٠). وأحياناً ما كان أصحاب تلك الرسائل يناشدون الملك بضرورة معاقبة أولئك الذين يُقصرون في تقديم الضرائب المستحقة عليهم. ولعل هذا ما تفصحه رسالة بعث بها شخص يدعى ندين-آشور Nadin-Aššur إلى الملك الآشوري يخبره بالآتي "حتى الآن لا أحد جلب المنتج الأول من فواكه بلاده ولا ضريبة الخمس من مقاطعة بَرَحَلَزِي Barhalzi. أنا بعث عبيدك في بيت التاجر وحملت ضريبة الخمس وقمت بانجازها (القرايين). يجب على الملك أن يسأل كتبت بَرَحَلَزِي الآتي لماذا لم يعط ضريبة الخمس لئله آشور؟... إذا الملك لم يعاقب أحد الكتبة أو الآخر فسوف لن يكتسب الرهبة. إذا لم يجلب الحاكم ضريبة الخمس ويعطيها إلى معبده فإن بقية الحكام سوف يحذون حذوه ويمضون قدماً للضرب ضدّ معابدهم"^(٣١).

وبما عرض من أدلة نصية عن ملامح وأشكال العمل التمردية والعصيانى فإن السؤال المهم الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هو ما الأسباب الحقيقية التي تدفع بعض الرعايا للقيام بتلك الأعمال ضد المملكة؟ فإذا جاز لنا أن نضيف نتائج الحروب الآشورية وإفرازاتها على واقع المجتمع الآشوري الحديث. فإنه يمكن القول إن هناك أموراً أخرى جوهرية في رأينا فعلت فعلتها في خلق ذلك السلوك وتناميه لدى بعض الرعايا متمثلة بالآتي:

١- كراهية بعض الشعوب للحكم الآشوري المباشر:

وتمثل إحدى أبرز الأسباب الرئيسية في خلق ذلك السلوك. فعلى الرغم مما أبداه بعض الملوك الآشوريين من عطف وتسامح واحترام في سياساتهم تجاه سكان البلاد الواقعة تحت سيطرتهم مثل بلاد بابل، متمثلة بإعفائهم من الضرائب وتحريرهم من الديون^(٣٢) والأسر^(٣٣) وتعظيمهم لإلههم القومي مردوك، غير أن ما يمكن التماسه من بعض الرسائل الإدارية المرسله إلى الملوك الآشوريين أنها تُظهر شعوراً معادياً لبلاد آشور تجلى لنا ذلك بما جاء في رسالة بعثها شخص من نيبور إلى الملك الآشوري يخبره في مضمونها عما يأتي:

LUGAL i-di KUR.KUR gab-bi a-na UGU KUR aš-šur.KI i-zi-ir-ú-na-ši GÌR.2-a-ni ina KUR.KUR gab-bi ul et-re-et a-šar ni-il-lak ni-id-da-ka um-ma mi-nam-ma GÌR.2 KUR aš-šur.KI ta-as-bat-a a-du-ú KÁ.GAL.MEŠ-ia nu-up-tah-hi a-na pít-hi ul nu-us-su⁽³⁴⁾.

"يعلم الملك بأن كل البلدان تكرهنا بسبب بلاد آشور. ونحن لا نستطيع المرور بأمان في أيّ من البلدان أينما سنذهب سيقتلوننا بالكلمات" لماذا تتعلق بإقدام بلاد آشور؟" الآن نحن أغلقنا بوابات مدينتي لم نذهب خارجاً إلى البلاد المفتوحة". ولعل هذا ما يفسر لنا من جانب آخر أيضاً أسباب هروب بعض الأقوام من السيطرة الآشورية ومحاولة الحكام الآشوريين في إعادة السيطرة عليهم ثانية وتوطينهم مرة أخرى ضمن مناطق النفوذ الآشوري. ويستدل

على ذلك من رسالة بعث بها أحد الحكام الآشوريين المدعو آشور - بيل - دَين Aššur-belu-da" in إلى الملك الآشوري قائلاً ما يأتي " القائم على زريبة البغال الذي جلبته بخصوص البحث عن سكان البلاد الهاريين جلب جنوداً من جبراني وأعطاني إياهم. كل الـ Halziatbareans (سكان بلاد Halzi-atābar) هربوا بأعداد كبيرة وانتشروا في كل البلدان... الآن نابوا Nabû'a القائم على زريبة البغال الذي عيّن بخصوص الكلدانيين جلب إلي ٣٨٠ شخصاً وأعداداً مكثوا في بلاد يسمُ Yasumu وبيت - زَماني Bit-zamani دعهم يرسلوا إليه رسالة (تخبره) كيف تمكن من جلب الكلدانيين بشكل كامل؟ وكيف تمكن من جمع سكان البلاد الهاريين وجلبهم إلي؟" (٣٥) فضلاً عن ذلك فإن كثيراً من تلك البلدان الخاضعة كانت تتحين الفرص المؤاتية للانسلاخ من السيطرة الآشورية كلما وجدت ضعفاً في قدرتها العسكرية، ويستدل على ذلك من رسالة بعثها مجموعة أشخاص إلى الملك الآشوري يناشدونه بإرسال تعزيزات عسكرية إلى حصن مدينة شَمُنُّ šam'unu بأسرع وقت ممكن لكي يتمكنوا من استعادة كل البلاد إلى سيطرة الملك على حد قولهم

ha-an-tiš e-mu-qu lik-šū-dan-ši-ma KUR gab-bi lu-tir-ram-ma a-na LUGAL EN-ia lud-din (36).

"عسى الجيش أن يصلنا بسرعة كي يمكننا من استرجاع كل البلاد إلى سيدي الملك"

٢ - أعباء أعمال المملكة على واقع المجتمع الآشوري:

غالباً ما خلقت أعمال المملكة المتنامية وأوامر الملك اللامتناهية عبأً ثقيلاً رمى بظلاله على فئات المجتمع الآشوري كافة وعناصره المختلفة من دون تمييز. حقيقة ذُكرت على لسان حكام المدن والمقاطعات أنفسهم في مخاطباتهم الإدارية مع الملوك الآشوريين، من ذلك على سبيل المثال ما جاء في رسالة بعث بها حكام مدن يقومون بأداء أعمال الملك في مدينة مِلقي Milqia إلى الملك الآشوري رداً على رسالته قائلين ما يأتي:

ša LUGAL EN-ni iš-pu-ra-na-ši-ni ma-a a-di har-da-ni ma-a ep-ša ga-me-ra ša LUGAL EN-ni iš-pu-ra-na-ši-ni né-pa-áš a-na LUGAL EN-ni ni-da-na dul-lu ina UGU-ni da-a-na a-dan-niš (37).

"بخصوص ما كتب إلينا الملك قائلاً "انها أعمالكم أثناء الإشراف عليها" - نحن سوف نعمل ما كتبه سيدنا الملك إلينا وسوف نسلمه إلى سيدنا الملك، لكن العمل عبء عظيم علينا ". أو كما ورد في رسالة سَمُنح - بيل - أُصُر Samnuha-bel-usur حاكم مقاطعة شَدِكَنَّ šadikanni المذكورة آنفاً عندما خاطب الملك الآشوري بالقول "أعمال الملك أصبحت عبأً عليّ. حررت رجالي في الشتاء الباكر ولكن هؤلاء الذين حرروا دخلوا الحصون من أجل التهرب من أعمال الملك. عسى سيدي الملك أن يدعو الحارس الشخصي يأتي كمأمورية لجلبهم خارجاً وجعلهم يمارسون أعمال الملك"

أما على الصعيد أو المستوى الشعبي، فنجد أن ملامح الاستياء والتذمر من أعمال المملكة كانت واضحة لدى شريحة واسعة من المجتمع، بدليل ما جاء في رسالة بعثها شخصان هما نابو - شَم - لِشِر Nabû-šuma-lišir وأقر - بيل - لُمُر Aqar-Bel-lumur إلى الملك الآشوري يخاطبانه في إحدى فقراتها قائلين ما يأتي: "بخصوص العمل على نهر بيت - دَرَيَ Bir-Deraya الذي أمرنا سيدنا الملك بسده - يعلم سيدنا الملك بأن السنة الماضية والسنة التي سبقتها أن سكان البلاد كانوا عدة، أتوا وعملوا فيه مثل مزارع واحد، لكن الآن سكان البلاد قلة و×× ولم يعملوا فيه في وقت مبكر... كل السكان عابسون ولا يعملون وفق قلوبهم (إرادتهم). سيقول سيدنا الملك "سوف يؤدون العمل! ولن يدعوا!" لكنهم لم يطيعونا ولذلك لم يقوموا بالعمل. عسى الملك أن يعمل ما يراه مناسباً" (38). ونجد التذمر أيضاً عند بعض الحدايين بخصوص الأعمال المتعلقة بالقصور، إذ نقرأ في أحد النصوص العبارة الآتية "الأعمال العائدة للقصور أصبحت عبأً علينا. عسى الملك أن يستفسر ويتحقق (بخصوص هذه المسألة) بشكل كامل. نحن انسحبنا بسببها (أعمال القصور). ليسأل الملك قائد الكتيبة "أين الجنود؟ الجنود ذهبوا ودخلوا القصور بسبب أعمال السخرة" (39). وربما لم تكن أعباء تلك الأعمال وصعوبتها هي السبب الرئيس لخلق ذلك الاستياء فحسب، بل إرغام الرعايا على القيام بتلك الأعمال وابتعادهم عن مشاغل حياتهم اليومية قد وُلد ذلك لدى شريحة واسعة من السكان.

فكثيراً ما عمدت بعض الشخصيات الرسمية في المملكة إلى زج الرعايا في تلك الأعمال المضنية خوفاً من الملك أولاً
بديل ما جاء في رسالة -وهي عبارة عن أمر- الملك إلى حاكم كلخ يخاطبه بالقول "٧٠٠ رزمة من التبن و ٧٠٠
رزمة من القصب كل رزمة أكبر مما قد يحمله حمار يجب أن تسلم في دور-شروكين في اليوم الأول من شهر
كسليف Kislev (التاسع) إذا تأخرت يوماً واحداً فسوف تموت" (٤٠). أو من أجل تكوين صورة لاثقة لتلك الشخصيات
أمام الملك ثانياً كما تفصح عن ذلك رسالة بعثها نابو-خمت Nabu-hamatu مندوب حاكم مقاطعة مزمو Mazamua
إلى الملك الآشوري يخاطبه بالقول "يجب أن يعلم سيدي الملك (ذلك) يجب أن لا يقول سيدي الملك" أنه عبد مهمل
؛ وأنه لا يؤدي عمله" أنا قدت عبيد سيدي الملك، نهراً وليلاً، ويصقلون ويفخرون بالنار الطابوق طوال اليوم" (٤١).
وربما يفسر لنا هذا جانباً آخر من أسباب قيام بعض القرى بقتل مسؤولي قراهم LÚ.URU.MEŠ-šú-nu، كما جاء ذلك
على لسان حاكم مدينة كار-شروكين المدعو من-ك-نينوى Mannu-ki-Ninua من خلال رسالة بعثها إلى الملك
الآشوري يخبره بالآتي "××× قتلوا مسؤولي قراهم وبعد ذلك أصبحوا خائفين وصعدوا الجبل. أرسلت نابو-تقنن
Nabu-taqinanni بخصوصهم (وبذلك) نزلوا وأبرمت معاهدة معه ودخل فيها أي شخص يعيش (الآن) في مدينته.
قريتان من ضواحيهم الثائرون الذين قتلوا مدراء القرى لم ينزلوا. إخوتهم أخبروا نابو تقنتت: "سوف ننزلهم ونأخذهم
أمام المحاكم ××... حالما ينزلون سوف أرسلهم إلى سيدي الملك" (٤٢).

٣- إصدار الأحكام العرفية وسياسة بعض الحكام والنبلاء العدوانية:

ربما لم تكن الحالات المذكورة آنفاً هي الأسباب الحقيقية المعلنه في خلق ظاهرة التمرد والعصيان في المملكة، إنما
هناك في رأينا أمور أخرى كان لها دور بارز في تنامي ذلك السلوك وإظهاره وإن لم تفصح عنه بشكل مباشر، ومن
الأمثلة على ذلك:

أ- قسوة بعض الأوامر الملكية:

بديل ما جاء في نص وهو عبارة عن أمر ملكي إلى خمسة أشخاص لا تعرف أسماءهم بسبب كسر في مقدمته
نقرأ فيه "احصلوا سوية مع حاكمكم زانداً خيول فرسانكم وتجمعوا في الحال! أي أحد يتأخر سوف يوضع على
الخازوق في وسط بيته. وأي أحد يغير ××× العائد للمدينة سوف يوضع على الخازوق في وسط بيته وسوف يُذبح
أبناؤه وبناته بأمره" (٤٣).

ب- سلوك بعض الحكام والنبلاء العدوانية

يستدل على ذلك من رسالة من آشور وهي عبارة عن شكوى مرفوعة من المحافظين وكاتب المدينة ونبلاء وسكان
مدينة آشور صغاراً وكباراً إلى الملك الآشوري يناشدونه بخصوص شخصية محافظ آشور-عشتار-نائد Issar-na'di
العدوانية قائلين الآتي: "عشتار - نائد، المحافظ، دمر آشور.... (لماذا) عينته على المحافظة؟ إنه مجرم... أخبرنا
سيدنا الملك، إذا عينته على المحافظة فإن عبيدك سوف يموتون أرسلنا رسالتين إلى سيدنا الملك لكن لم نر
إجابة. استسلمنا للموت. عسى الملك أن لا ينسى عبيده" (٤٤). أو كما ورد في أحد نصوص الفأل الآشورية إذ نقرأ
العبارة الآتية "تبلأ بلاد أكد الذين عينهم والدك الملك، دمروا بابل وحملوا ممتلكات بابل، لذلك فإن تلك العلامات
التي أتت توحى شراً. دع جنود الملك يأتون ويقبضون عليهم في قصورهم ودعه يضع آخرين بدلاً منهم إذا لم يفعل
الملك (ذلك) بسرعة فسوف يأتي العدو ويستبدلهم" (٤٥).

ويبقى لنا أن نشير إلى أمر مهم يجدر التطرق إليه ضمن المحور الأخير من هذا البحث، وهو ما موقف المملكة
من تلك الأعمال؟ أو بالأحرى ما هي الأساليب أو الطرائق التي أنتجتها أجهزة المملكة الرسمية لاستيعاب ذلك السلوك
أو الحد منه؟

نستدل من دراسة مضامين بعض الرسائل الإدارية أن الملوك الآشوريين تعاملوا في بعض الأحيان بحكمة وإنسانية إزاء تلك الأعمال (التمرد والعصيان) وذلك بالتجاوز عن الذنوب والجرائم التي يقترفها بعض الأشخاص ضدهم، حقيقة يمكن أن نستدل عليها برسالة يذكر صاحبها الذي لا نعلم اسمه بسبب كسر في مقدمتها العبارة الآتية:

hi-tu dan-nu ina É EN.MEŠ-ia ah-ti-ti ša du-a-ki a-na-ku la-a šá bal-lu-ti a-na-ku LUGAL be-lí re-e-mu a-na kal-bi-šú is-sa-kan i-ku-me a-na-ku mi-i-nu a-na LUGAL EN-ia ú-šal-lim ŠÀ-bi Á.2.MEŠ-ia GIR.2.MEŠ-ia ina KI.TA GIŠ.mu-gir ša LUGAL EN-ia šá-kín⁽⁴⁶⁾.

"ارتكبت خطيئة عظيمة في بيت أسياي، واستحق القتل وعدم العيش، لكن سيدي الملك كان رحيماً على قلبه فماذا لي أن أقدم إلى سيدي الملك عوضاً عن ذلك؟ قلبي وذراعي وقدماي موضوعة تحت عربة سيدي الملك". فضلاً عن ذلك فقد اتبعت المملكة أساليب وإجراءات احترازية للحد من تلك الأعمال تتاغت بين الشدة واللين تبعاً لطبيعتها ومدى خطورتها على واقع المملكة وأمن البلاد. ويمكننا بموجب الأدلة النصية التي نمتلكها أن نصنف طبيعة تلك الأساليب أو الإجراءات وفق المفهوم أو المنظور الحديث لدينا إلى:

أولاً: اللجوء إلى السياسة الدبلوماسية:

ولعلّهُ الأسلوب الأول في الأساليب السياسية التي كانت تلجأ إليها أجهزة المملكة الرسمية للحد من أعمال التمرد والعصيان ومعالجتها بالطرائق السلمية. وهو ما يمكن أن يستدل عليه برسالة بعثها مندوب مقاطعة مَزَمُوا المدعو تابو-خَمَتُوا Nabu-hamatua إلى الملك الآشوري، نقرأ فيها الآتي "تكلمت بعطف مع القرويين التابعين لابن بيل-إدّن Bēl-iddina وشجعتهم. ابن بيل-إدّن (نفسه) مجرم وخائن، ولا يحترم (أوامر الملك) (قلت) "مارسوا أعمالكم كل في بيته وحقله وبسرور، أنتم الآن إتباع الملك" هم مسالمون ويقومون بأعمالهم. جلبتهم خارجاً من ستة حصون. قائلاً "أذهبوا كل واحد منكم يجب أن يبني بيتاً في الحقل ويبقى فيه..."⁽⁴⁷⁾.

وفي الوقت ذاته لم تقتصر الجهود والمساعي الدبلوماسية على المراضات أو الاتفاقيات الشفوية فحسب بل تعدتها إلى إبرامها أو تدوينها بموجب عهود ومواثيق متمثلة بجهود الملوك الدبلوماسية في الحد من تلك الأعمال، وقد عرفت في بلاد آشور معاهدة الملك a-de-e ša LUGAL التي تتضمن طاعة أوامر الملك أو ولي العهد وحمائيتهم من جميع أنواع الاعتداءات والشتم وأعمال التحريض المسلح. ومن استقرار واقع الأحداث في المملكة الآشورية الحديثة يتبين أن تلك المعاهدات كان لها الأثر الفاعل على أرض الواقع وذلك بالإنزال الرعايا بينودها، بدليل ما جاء في رسالة بعثت من مجموعة أشخاص إلى الملك آشور-بان-أبل نصت على ما يأتي:

"دخلنا في معاهدة مع والدك الملك ودخلنا في معاهدة مع سيدنا الملك. علاوة على ذلك فقد كتب إلينا الملك قائلاً: اكتب إلي أي شيء تراه أو تسمعه. عندما شاهدوا سكان مدينة أوروك (الوركاء) أولئك الرجال الذين ارتكبوا جريمة ضد الملك في مدينة أوروك كتبوا إلينا بذلك ونحن كتبنا إلى الملك بما قالوا. والآن جلبنا المجرمين والشهود إلى حضرة الملك إذا كان ذلك مقبولاً لدى الملك فليتحقق الملك منهم"⁽⁴⁸⁾.

ثانياً: اللجوء إلى مبدأ العقوبة والقصاص وضوابط الردع العسكرية

وهو الإجراء الأخير الذي غالباً ما كان يلجأ إليه الملوك الآشوريون لمعالجة الأخطار الداخلية المحدقة بالمملكة، وذلك عندما تعجز أساليب الردع الدبلوماسية لديهم في الحد من تلك الأعمال، ولاسيما التمرد على وجه الخصوص، وعادةً ما كانت هذه الإجراءات تتخذ أشكالاً وأساليب مختلفة تنوعت تبعاً لطبيعة تلك الأعمال ومدى خطورتها بين:

١ - أساليب تقييد الحريات وتشمل:

أ- عقوبة الحبس والاعتقال:

بدليل الأمثلة أو الحالات التي سبقت الإشارة إليها في أول البحث والمتضمنة أوامر ملكية باعتقال أشخاص وحبسهم، أو كما جاء في رسالة بعث بها شخص يدعى كَمِلُّ Gimillu يشتكي إلى الملك الآشوري قائلاً: "(إذن)، ارتكبت جرمًا ضد سيدي الملك (إذن) أنا لا أعلم ما هي جرمي. هذه سبع سنوات قضيتها في سجن حقير، من دون الملك، أخذوا بيتي ودمروا ملكيتي وأنا أحتضر من الجوع في سجن. هناك العديد من الذين ارتكبوا إثماً ضد سيدي الملك لكن الملك تجاوز عنهم وأبقى على حياتهم حتى المرشحين سمح لهم بالحياة. أنا لست مذنباً أو شريراً لا تدعني أموت جوعاً في سجن عسى سيد الملوك أن يسمح لي بالعيش"^(٤٩).

ب- عقوبة الترحيل

ربما كان يُعدّ الترحيل أو النفي من البلاد أحد أساليب الردع التي لجأ إليها الملوك الآشوريون للحد من أعمال التمرد داخل المملكة، ولعل هذا ما يمكن أن نستنتجه من رسالة بعثها شخص إلى الملك الآشوري يعلمه في أحد فقراتها بالآتي:

LUGAL be-lí-a iq-ta-bi um-ma lem-mu u mu-šá-an-hi-su la KUR šu-la-a⁽⁵⁰⁾

"قال سيدي الملك "أبعد الشخص الشرير والمعرض على التمرد من البلاد"

٢- أساليب التهيب أو التخويف:

وتمثل إحدى طرائق الردع التي أحياناً ما تضطر أجهزة المملكة الرسمية إلى اللجوء إليها للحد من أعمال العصيان عندما تكون على مستوى جماعي أو شعبي، ويستدل على ذلك بالإجراء الذي اتخذهُ قُرد-آشور-لامُر الموظف الآشوري المسؤول عن الموائئ اللبنانية في كل من صور وصيدا عندما قام بإرسال قواته إلى الصيدين وإخافتهم على اثر قيامهم باختطاف موظف الضرائب المسؤول الذي عينه في صيدا كما ذكرنا ذلك آنفاً أو العمل الآخر المماثل الذي قام به شمش-امُرُن šamaš-emuranni حاكم مقاطعة مزموا بخصوص مدينة كِبَتِك Kibatki عندما قال بشأنها في رسالة أرسلها إلى الملك الآشوري: "انتظرتهم (التجار) لكنهم منذ ذلك الحين لم يأتوا إلي، أرسلت عبيد سيدي الملك لإخافة مدينة كِبَتِك ووضع الناس على السيف وبعد هذا العمل الترهيبى على كِبَتِك أصابهم الخوف"^(٥١).

٣- عقوبة الموت:

كثيراً ما كانت عقوبة الموت على اختلاف أشكالها مصير المتمردين داخل المملكة وخارجها، فهي على الرغم من دوافعها الدينية التي تهدف إلى التكفير عن الذنب أو الإثم الذي اقترف بالحنث بقسم الآلهة الخاصة بالمعاهدات، إلا أنها كانت تمثل من وجهة نظر الملوك الآشوريين القصاص العادل بحق أي شخص تسول له نفسه التجرؤ على شخص الملك وزعزعة أمن المملكة وتحذيراً للآخرين من مغبة القيام بمثل هذا العمل. ولعل هذا ما يفسر لنا الإجراء العقابي الذي اتخذهُ آشور-بان-أبل ضد قتلة جده سين-أخي-ريب عندما قال بخصوصهم في أحد نصوصه الملكية ما يأتي "قطعت ألسنتهم وضربتهم، وبقية الناس الذين يمثلون شخصيات الآلهة الحامية ومن بينهم جدي سين-أخي-ريب صرَعوا وأنا بنفسى صرعت هؤلاء الناس بعينهم"^(٥٢).

وقد تقتضي الحالة القيام بحملة عسكرية للحد من حركات التمرد التي كانت تحصل أحياناً في عدد من المدن الآشورية أو التابعة للنفوذ الآشوري ولعل هذا ما يمكن أن نستدل عليه من الإجراء العسكري الذي اتخذهُ الملك شمش-أدد الخامس (٨٢٣-٨١١ ق.م) إبان سنوات حكمه الأولى لإخماد أعمال التمرد التي حصلت في سبعة وعشرون مدينة في المملكة الآشورية من بينها مدن رئيسة مثل نينوى وكلخ وارييل قام بها Aššur-da"i-in-apla للإطاحة على ما يبدو بوالده الملك شلمنصر-الثالث (شلمان-أشريد) في سنة حكمه الواحد والثلاثين. إذ نقرأ في إحدى حوليات شمش-أدد الخامس ما نصه "عندما قام Aššur-da"i-in-apla في عهد والده شلمان-أشريد بعمل خياني وذلك بتحريض التمرد والفتن والأعمال الإجرامية مما سبب بتمرد البلاد والاستعداد للحرب

(في ذلك الوقت) سكان بلاد آشور، أسفل وأعلى استمالهم إلى جانبه وجعلهم يرتبطون بقسم مما جعل المدن تتور وتستعد لشن حربٍ وهذه المدن نينوى و Adia و šibhiniš و Imgur-Enlil و Iššabri... سوية مع سبعة وعشرون مدينة مع حصونها التي تمردت ضد والدي شلمان-أشريد ملك الجهات الأربعة إلى جانب Aššur-da"in-apla. قهرتهم بأمر أسيادي الآلهة العظام"^(٥٣).

وأحياناً ما كانت عقوبة الموت تأخذ شكلاً أو إطاراً دينياً كي يعطي للملك الآشوري المسوغ أو الغطاء الشرعي لإنزال عقوبة القصاص على المتمردين ضده على وجه الخصوص، بدليل ما جاء في أحد النصوص الدينية إذ نقرأ في إحدى فقراته فيما يخص كلام الآلهة عشتار إلى الملك آشور-أخ-إدّ

LÚ.man-za-az É.GAL LU-ARAD É.GAL šu-nu ša ina UGU-ka i-si-hu-ni al-ti-bi-a ina UGU šin-ni-šú-nu a-na GIŠ.za-qi-ba-a-ni as-sa-kan-šú-nu⁽⁵⁴⁾.

"(بخصوص) هؤلاء من الحاشية وعبيد القصر الذين تمردوا ضدك سوف أحاصرهم وأضعهم على الخازوق من أحناكهم"

الخاتمة:

وأخيراً تجدر بنا الإشارة في ختام هذا البحث إلى أن ما عرضناه من نماذج للأدلة النصية فضلاً عن تحليل الأبعاد الحقيقية لمضامين البعض منها تظهر أن واقع الحال الذي عاشته المملكة الآشورية في ظل نموها وتوسعها العسكري إبان العصر الآشوري الحديث قد أحدث تغييرات وتطورات في أنظمتها الإدارية وسلوك سكانها. فسياسة تجهيز الحملات العسكرية وما تمخض عنها من نتائج أفرزت تأثيراتها المباشرة في حياة المجتمع بالمملكة. فإخضاع البلدان المعادية تحت السيطرة الآشورية المباشرة وأعمال الترحيل لشعوب المدن المقهورة وإسكانهم كمجاميع ضمن مناطق النفوذ الآشوري وإرغام هؤلاء الأقوام ممن لا يركنون أحياناً المحبة لبلاد آشور على العمل الدؤوب في سبيل تنفيذ أوامر الملك وخدمة متطلبات المملكة المتنامية من الأعمال والخدمات ذات الطابع المدني أو العسكري، قد خلق ذلك سلوكاً عصيانياً لدى شريحة واسعة من بينهم، ونزعة نحو التحرر والاستقلال من السيطرة الآشورية والمتمثلة بأعمال التمرد ضد النفوذ الآشوري.

وأن ظروف الحرب المريرة التي عاشتها المملكة الآشورية في سبيل تثبيت أركانها والحفاظ على كيانها في ظل تحديات القوى المحيطة بها آنذاك فضلاً عما كان يحاك من مؤامرات ودسائس في القصر أو خارجه ضد بعض الملوك الآشوريين، فرضت عليهم إتباع المركزية في الحكم واللجوء إلى الأسلوب العسكري في إدارتها متمثلة في إصدار الأحكام العرفية أثناء الحروب متجسدة في طاعة أوامر الملك وتعليماته وعدم الخروج عنها آخذين بالحسبان أن أوامره أو كلامه لا يتغير مثل كلام الآلهة بدليل ما جاء في رسالة موجهة إلى الملك الآشوري تذكر العبارة الآتية "ثثق بكلام سيدنا الملك الذي يشبه كلام الإله الذي لا يتغير"^(٥٥). وتعيين حكام ذوي قوة ونفوذ لإدارة المقاطعات وإلزام سكانها على تنفيذ أعمال المملكة تحت إشراف قوات الـ اتوا التي تعمل تحت إمرتهم مما دفع البعض منهم إلى استغلال صلاحياتهم في التعدي على رعاياهم والاستحواذ على ممتلكات البعض منهم كما يستدل على ذلك بالعديد من رسائل المظالم التي كانت ترفع من بعض الرعايا إلى الملوك الآشوريين بخصوص ذلك، لا مجال لذكرها لضيق المقال. كل ذلك كان من الأسباب الرئيسية لخلق مظاهر العصيان والتمرد الذي بدأ الملوك الآشوريون يشعرون بوطنيتها على واقع المملكة بأسرها فأخذوا في بادئ الأمر معالجتها والحد منها بالطرائق السلمية والدبلوماسية والمتمثلة بالمعاهدات ثم بعد ذلك باستخدام القوة والقصاص عندما وجدوا أن الطرائق الدبلوماسية لم تكن كافية في بعض الأحيان للحد من تلك المظاهر، ولاسيما أعمال التمرد.

الهوامش

(١) ساكز، هاري، الحياة اليومية في العراق القديم، ترجمة، كاظم سعد الدين، بغداد، ٢٠٠٠، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ساكز، هاري، قوة آشور، لندن، ١٩٨٤، ترجمة، عامر سليمان، بغداد، ١٩٩٩، ص ١٨٢.

- (3) ABL , 713 = SAA , Vol, 15 , No, 85 , Obv, 6-11.
(4) ABL , 1176 = SAA , Vol, 5 , No, 54 , Obv, 2-11.
(5) ABL , 1085 = SAA , Vol, 1 , No, 245 , Obv, 1-8 , e, 9-10 , Rev , 1-6.
(6) ARAB , Vol, 2 , 773.
(7) RMA, 277B = SAA , Vol, 8 , No, 414 , Obv, 1-4.
(8) SAA , Vol, 2 , P, 36-37 , 198-201.
(9) ARAB , Vol, 2 , 984.
(10) SAA , Vol, 2 , No, 9 , P, 65 , 12-16.
(11) SAA , Vol, 2 , No, 9 , P, 9 , 26-28.
(12) ARAB , Vol, 2 , 789.

(١٣) الدوري، رياض عبدالرحمن أمين، آشور بانيبال سيرته ومنجزاته، بغداد، ٢٠٠١، ص ١١٣.

- (14) SAA , Vol, 2 , No, 6 , 130-137 , 142-146.
(15) Pfeiffer, R.H. State Letters of Assyria, New Haven, 1935, No, 81 = ABL, 301.
(16) Gragson , A.K, Assyrian and Babylonian Chronicles , New York , 1976 , P, 81 , 34-38.
(17) Wiseman, D.J, "Murder in Mesopotamia" Iraq , Vol, 34 , 1974 , P.253-254.
(18) Grayson, A.K, Op.Cit , P. 176 , 10-11.
(19) ABL, 251 = SAA , Vol, 5 , No, 53 , Obv, 4-9.
(20) RIMA , Vol, 2 , P, 200-201 , 101-104, 106-107.
(21) CT, Vol, 53 , No, 10 = SAA , Vol, 1 , No, 179 , Rev, 13-18.
(22) ABL, 125 = SAA , Vol, 5 , No, 118 , Obv, 3-11 , e, 12-13 , Rev, 1-7.
(23) ABL, 888 = SAA , Vol, 1 , No, 224 , Obv, 4-13.
(24) ABL, 153 = SAA , Vol, 15 , No, 294 , Obv, 3-10.
(25) ABL, 140 = SAA , Vol, 16 , No, Obv, 6-15 , e, 16 , Rev, 1-4.
(26) ABL, 218 = SAA , Vol, 1 , No, 155 , Obv, 4-9.
(27) ABL, 175 = SAA , Vol, 1 , No, 153 , Obv, 6-9 , e, 10 , Rev, 1-6.

(٢٨) الد اتوا، هي إحدى القبائل الآرامية التي اتصفت بإمكانياتها القتالية الخاصة، والتي استخدمت من الملوك الآشوريين بوصفها قوات احتياطية ضمن الجيش الآشوري، عن ذلك ينظر، احمد، علي ياسين، القبائل العربية في بلاد بابل خلال الألف الأول قبل الميلاد، وقائع ندوة الوطن العربي النواة والامتدادات عبر التاريخ، بغداد، ٢٠٠٠، ص ٣٢.

- (29) ND, 2715 , Iraq , Vol, 17 , 1955 , P, 127-130 = TCAE , P, 390-391.
(30) ABL, 639 = SAA , Vol, 1 , No, 236 , Obv, 9-13 , e, 14-15 , Rev, 1-9.
(31) ABL, 532 = SAA , Vol, 13 , No, 31 , Obv, 4-18 , Rev, 1-9.
(32) ABL, 387 = SAA , Vol, 5 , No, 203.
(33) ABL, 418 = SAA , Vol, 18 , No, 14.
(34) ABL, 327 = SAA , Vol, 18 , No, 70 , Obv, 11-17 , e, 18-20.
(35) ABL, 245 = SAA , Vol, 5 , No, 79.
(36) ABL, 774 = SAA , Vol, 17 , No, 152 , Obv, 19-12.
(37) ABL, 526 = SAA , Vol, 1 , No, 147 , Obv, 6-15.
(38) ABL, 1335 = SAA , Vol, 17 , No, 120 , Rev, 22-23.
(39) CT , Vol, 53 , No, 13 = SAA , Vol, 16 , No, 40 , Rev, 8-17.
(40) NL, 32 = SAA , Vol, 1 , No, 26 , Obv, 2-6 , e, 7 , Rev, 8-11.
(41) ABL, 1068 = SAA , Vol, 5 , No, 211 , Obv, 1-11.
(42) ABL, 1008 = SAA , Vol, 15 , No, 98 , Obv, 1-13.
(43) CT , Vol, 53 , No, 136 = SAA , Vol, 1 , No, 22 , Obv, 7-11 , 1-10.
(44) ABL, 1238 = SAA , Vol, 16 , No, 97 , Obv, 9-10 , Rev, 4-19.
(45) RMA, 272 = SAA , Vol, 8 , No, 502 , Rev, 13-19.

- (46) ABL, 620 = SAA , Vol, 16 , No, 36 , Obv, 3-8.
(47) ABL, 208 = SAA , Vol, 5 , No, 210 , Obv, 10-17 , Rev, 1-13.
(48) ABL, 472 = SAA , Vol, 18 , No, 83 , Obv, 1-10 , Rev, 1.
(49) ABL, 530 = SAA , Vol, 18 , No, 94 , Obv, 1-13.
(50) ABL, 1341 = SAA , Vol, 18 , No, 102 , Obv, 7-8.
(51) ABL, 310 = SAA , Vol, 5 , No, 202 , Obv, 2-13.
(52) Wise man, D.J, Op.Cit, P, 252.
(53) RIMA , Vol , 3 , P, 183 , 39-53.
(54) SAA , Vol, 9 , No, 3 , IV, 25-30.
(55) CT, Vol, 54 , No, 34 = SAA, Vol, 18 , No, 89 , Rev, 3-5.

Abstract

Rebellion and disobedience in the Neo Assyrian Kingdom (911-612 B.C).

The military expansion of the Neo Assyrian period was different impulsive and reasons , the mass deportation of the peoples from the conquered countries and settling them as groups in side Assyria and in other countries which retained their ethnic unity in Assyria , the endless orders of these kings , all these factors had their great effect in creating a kind of rebellious behaviors of a sector of population in Assyrian kingdom. These rebellious movements against the king's authority and his influence which affected all the aspects of life in the kingdom. This rebellion bothered most of the Assyrian kings who thought that it is an indication to the kingdom weakness and its exhaustion politically and economically, so they tried through their different policies to control that situation and put an end to it. The present research aims at shedding the light on the characteristics of that rebellion and knowing its reasons and the ways followed by the Assyrian kings to prevent it.